ثقافة وفنون

ليلى العضم وإلياس أبو شبكة: رغبتها في الخلود قابلها بحثه المازوشي عن مصدر للإلهام حب من خارج الزواج استمر لسنوات سبع وأثمر «نداء القلب» و«إلى الأبد»



إلياس أبو شبكة

آخر تحديث: 14:14-9 مايو 2023 م . 19 شوّال 1444 هـ
نُشر: 13:37-9 مايو 2023 م . 19 شوّال 1444 هـ

بيروت: شوقي بزيع

لم يكن الشاعر اللبناني إلياس أبو شبكة مجرد تفصيل عابر على خريطة الشعر العربي المعاصر، فالشاعر الذي رفض الانقلاب على نظام الشطرين، رفض بالمقابل أن يكون نسخة مكررة عمن سبقه من الشعراء، فحقن الشكل الشعري التقليدي بأمصال جديدة، متخذاً حقلاً معجمياً بالغ التميز، ومستلاً لغته من خلجات الروح وكهرباء العصب. ولعل مقدمة الشاعر لديوانه الأبرز «أفاعي الفردوس»، التي يرد فيها على بول فاليري ومذهب الرمزيين في إعلاء شأن الصنيع والتوشية الجمالية، لم تُظهر انحيازه الواضح للمذهب الرومانسي فحسب، بل بدت المعادل النظري لشعره الخارج من أتون الآلام وتمزقات العصب المحتدم، الذي يختزله قوله:

إجرحِ القلبَ واسقِ شعرك منه فدَمُ القلب خمرة الأقلامِ



وإذا أنت لم تعذَّب وتغمسْ قلماً في قرارة الآلامِ

فقوافيكَ زخرفٌ وبريقٌ كعظامٍ في مدفنٍ من رخامِ

والأرجح أن التناقض المأزقي في حياة أبو شبكة المولود في نيويورك عام 1903. قبل عودته مع العائلة إلى ذوق مكايل، ليس متأتياً من تكوينه الشخصي فحسب، بل غذته عوامل أخرى، أبرزها مقتل أبيه المأساوي على يد بعض اللصوص. وكان لانحدار العائلة من حالة اليسر السابقة إلى فقرها المستجد، أثره النفسي السلبي على الشاب العصبي والمعتد بنفسه، الذي لم توفر له موهبته سبل العيش الكريم، وسط محيط اجتماعي لا يقيم وزناً إلا لأصحاب النفوذ والممسكين بمقاليد السلطة والمال.

ليس بالأمر الغريب تبعاً لذلك، أن يجد أبو شبكة في المرأة الترياق الذي يلأم صدوع نفسه، والحضن الذي يوفر له ما يحتاجه من الحنان والدفء. وكانت أولغا ساروفيم، ذات الجمال الهادئ وجارته في ذوق مكايل، هي الفتاة الأولى التي خفق لها قلب الفتى المراهق. ومع أنها كانت تكبره بسنوات عدة، إلا أن أبو شبكة ما لبث أن أعلن خطوبته على أولغا، بعد أن بدأت الألسن تطال علاقتهما بالسوء، مطلقاً عليها اسم غلواء، وناشراً قصائده عنها في صحف لبنانية عدة.

والأرجح أن تأخره في الزواج من أولغا حتى عام 1932 لا يعود لأسباب مادية ومعيشية كما كان يزعم، بل لخوفه من الانخراط في المؤسسة الزوجية، التي كان يخشى في ظل زمنها الرتيب وقيودها المرهقة، أن يفقد مناجم مخيلته ومصادر إلهامه. وينقل عنه صديقه الشاعر رياض المعلوف قوله إنه أصر على أن لا يتشاطر مع غلواء المنزل ذاته، كي لا تضمر في داخله حالة الشغف وجذوة الكتابة. لكن من يتابع

قصيدة الشاعر الطويلة «غلواء»، سيلاحظ أن أكثر المقاطع توهجاً واحتداماً هي التي تتمحور حول الشعر والألم والنوازع الإنسانية المحتدمة، في حين أن جانبها الأوفر لا يبارح ما ألفناه من وجوه التجديد الشكلي الذي عرفناه مع الموشحات ونماذج عصر النهضة.

أما لُقى الشاعر الأكثر فرادة فسنجدها في «أفاعي الفردوس»، حيث علاقة أبو شبكة المحمومة مع روز ساروفيم، المرأة المتزوجة التي أطلق عليها اسم «وردة»، انعكست على شكل صراع روحي عاصف بين الدنس والطهر، بينما خرجت قصائد أخرى من رحم علاقته بالمغنية السمراء «هادية»، التي لم يتوان عن تعليق صورتها في صدر منزله الزوجي، قبل أن يضبطها في فراش أقرب أصدقائه إليه. وإذا كان الديوان المذكور أحد الإرهاصات المبكرة بالحداثة الشعرية، حيث تأثر بمناخاته شعراء لاحقون بينهم خليل حاوي، فقد بدا واضحاً تأثر الشاعر بعوالم بودلير الجحيمية، لا سيما في «أزهار الشر»، حيث يتخذ من خيانة دليلة لشمشون قناعاً لعشيقته الخائنة:

ملّقيه بحسنك المأجور وادفعيه للانتقام الكبيرِ

إنما الحسن يا دليلة أفعى كم سمعنا فحيحها في السريرِ

والبصير البصير يُخدع بالحسن وينقاد كالضرير الضريرِ

لستِ زوجي بل أنتِ أنثى عُقابٍ شرسٍ في فؤادي المسعورِ

وإذ ظل أبو شبكة يبحث طويلاً عن المرأة الحلم، التي تعيد إلى شعره وحياته النيران التي أخمدها الزواج، فقد وجد في ليلى العضم ضالته ومثاله الأنثوي الأسمى. ولم يكن الشاعر ليأبه بكونها متزوجة وأماً لولدين، لأن همّه كان منصباً على تغذية أناه المتفاقمة بما تحتاجه من عناصر الشغف والحب المشبوب، فيما كانت هي من جهتها ترى فيه السبيل الأنجع لنقل جمالها الفاني إلى خانة الخلود. وفي كتابه المميز «لكي تحب أتيت الأرض» ينقل هنري زغيب عن جورج غريّب، الكاتب ومدير مدرسة عينطورة، قصة الرسالة التي دستها في جيبه ليلى العضم، المرأة الجميلة التي كان لها ولدان في مدرسته، بغية إيصالها إلى صديقه الأثير. ويتحدث غريّب عن المنظار الذي كان يثبته الشاعر في مكتبه الوظيفي ليقرّب إلى عينيه صورة حبيبته، وعن الدموع التي انهمرت على خديه لدى حديثه معها على الهاتف، وعن الحادثة الغريبة التي وقعت له في الخنشارة حين أخطأ العنوان الذي زودته به لكي تلتقيه بين جدرانه، والجروح التي أصيب بها بعد أن ظنه أصحاب المنزل أحد اللصوص المحترفين.

وكثيراً ما كان أبو شبكة يجلس بين مدافن الذوق المقابلة لمنزل حبيبته، مساهراً الضوء المنبعث من غرفة نومها، فلا يبارح المكان إلى أن ينطفئ الضوء فجراً، وحين علمت ليلى بالأمر صارت تطفئ الضوء في وقت مبكر، إشفاقاً على شاعرها من السهر والبرد. كما روت أم أبو شبكة أن ابنها أحب ليلى إلى

درجة الهوس، وحين تخلفت مرة عن موعده أكد أنه أبصرها تمر على صورة طيف أو غيمة بيضاء، ثم تستسلم الأم لدموعها وهي تعاين «ما فعله العشق بوحيدها المجنون».

ولم يكن جمال ليلى الباهر هو وحده ما شد الشاعر العاشق إلى ليلاه، بل عقلها المتفتح واطّلاعها الواسع على ثقافة العصر، وحساسيتها العالية إزاء الشعر والفن. كما ظهرت موهبتها في الكتابة من خلال الرسائل التي بعثت بها إلى الشاعر، والتي لا تقارن أبداً بكتابات غلواء الركيكة، قبل أن تطلب منه إتلافها لدى إصابته بسرطان الدم، لدى تهديد زوجها لها بأبشع العواقب. وفي رسالتين نجتا صدفة من التلف، يكتب لها الشاعر: «أيها الجمال البهي النقي الذي يمدني بأمل الحياة. أنا الشاعر الجهنمي الرؤى، وأنت من جعل مني شاعراً حنوناً وصافياً»، فتكتب له بدورها: «الهنيهة التي أنفصل فيها عنك، أحتفظ بها لأزداد تعلقاً بك. ولحظة أراك تغادرني، يكويني الألم فأجمّد شكلك وأحملك معي إلى عزلتي. أنت في ذاتي وحولي، وواحد أحد في هذا العالم». أما حديث البعض عن الطبيعة الطهرانية واللاجسدية لعلاقة الطرفين، فلا تدحضه سيرة أبو شبكة مع النساء الأخريات فحسب، بل إشاراته المتكررة إلى ما كان يحدث بينهما من عناقات حارة وتواصل جسدي، تجنب الشاعر الإفصاح عن تفاصيله.

ورغم أن المقارنة بين أولغا وليلى، تقع على المستويين الجمالي والمعرفي في مصلحة الأخيرة، فإن في احتفاظ أبو شبكة بالاثنتين معاً، ما يؤكد زهوه النرجسي بتنافس المرأتين على قلبه، ولو من موقعين متغايرين، فيقول مخاطباً ليلى:

وحقّ هوى غلوا أحسّكِ في دمي وأُقسم ما في غَلْوَ حبٌّ مدمِّرُ

جرت في دمي وحياً وتجرين في دمي ولكنّ لونَ الحبّ قد يتغيّرُ

ومع أن أولغا، بحكم الطابع الشرعي للعلاقة، هي التي رافقت لحظات احتضاره الأخيرة في المستشفى عام 1947. كما دفنت إلى جانبه عند رحيلها، لكن ليلى العضم هي التي نفذت إلى صميم قلبه وعقله. وهي التي غذت قصائده بلهب الإبداع، فخاطبها في «نداء القلب» قائلاً:

جمالكِ هذا أم جمالي؟ فإنني أرى فيكِ إنساناً جميل الهوى مثلي

وهذا الذي أحيا به، أنتِ أم أنا؟ وهذا الذي أهواه، شكلكِ أم شكلي؟

أُحسُّ خيالي في خيالكِ جارياً وروحكِ في روحي وعقلكِ في عقلي

كأنكِ شطرٌ من كياني أضعتُهُ ولما تلاقينا اهتديتُ إلى أصلي

أما ليلى المسكونة به والوفية لذكراه، فقد كتبت في مذكراتها عنه «إن روحينا اللتين تفصلهما اليوم مطارح لا منظورة وجسور مستحيلة، تتلامسان وتتواصلان في رغبة واحدة. إن العاصفة التي فجّرها غيابك نزعت الغيوم التي كانت تحجب عني رؤية أعماقي. بعدها صرت أرى بوضوح كل ما في عمق ذاتي لأنني تعذبت كثيراً، وتأكد أنني منذ غيابك صرت أستطيع الاحتفاظ بك لي وحدي».

مواضيع لبنان
